أمومة حائرة

قصة قصيرة بقلم

احمد فؤاد تيمور

يقدمها محمود تيمور

هذه قصة قصيرة اخترت أن أقدم لها ، وما اقصد بهذا التقديم مجاملة كاتبها ، لمكان قرابته مني ، بقدر ما قصدت الى تقدير ما فيهـــا من قرابة للفن ، وهي أعز وأبقى ، وليس غيرها اولى بالمجاملة والايثار .

لقد استرعى انتباهي من القصة انها طليعة طيبة ، وما احرانا أن نهتف لمثلها من الطلائع ، كي تأخذ الكفايات المبشرة حظها من النماء والازدهار .

وليست هذه القصة بالتي تنطوي على أحداث ضخام ، وشخصيات معقدة ، ونهايات مثيرة ، ولكن قيمتها تتركز في لمستها الانسانية الصادقة ، وفي منحاهـــا الطبيعي الهين المألوف الذي سارت فيه بدءا وختاما .

يصور لنا الكاتب طفلة تشبّ ، وبين جنبيها مشاعر مبكرة للأمومة ، فكان متنفسها العاطفي هو الدمى والعرائس . ومضت بها الأيام تفصح من مشاعرهـــا تلك ، حتى استقبلت حياة الزوجية ، وهي معقد الأمل في أن يتحقق لها حلمهـا المنشود ، وبينما هي توشك أن تقطف الثمرة الزكية ، وتنعم بالصحبة الانيسة ، اذا صرح الأمل ينهار ، فلا تجد أمامها الا سرابا كان يروى ظمأها في عهـــد الطفولة الغضة ، وهيهات أن يطفى لها اليوم ظما ، وقد جاوزت ذلك المهد الوديع .

لم يفت الكاتب أن يستهل قصته بتمهيد ، فأدار حوارا حول صورة تزين حائط حجرة ، وما هذه الصورة الا رمز لمحور القصة ، أعني الأمومة ، وفي الحوار تلمح هذه الجملة « ان كل امراة تحيا في باطن نفسها ما تحياه على مطرح انظارنا تلك الأم الفخور . . . » وهذا التمهيد يدل على بصر بالصناعة القصصية ، اذ يقيم ركنا من اركانها . هو الايحاء بالموضوع ، والتشويق اليه . وليس التمهيد ثانويا في علاقته بالقصة ، وليس نطاقه بحيث يطفى على كيانها الجوهري .

مضى الكاتب يصف لنا كيف نشأت عاطفة الأمومة عند الطفلة وصفا جميلا ، فهي «ما كادت تستكمل سنيها الخمس حتى كان سمعها الغض يأنس بذلك الذعر الطروب ، لحن الأمومة الخالد ، وعاشت في حنانتها تترسل عليها تلك الأنغام العذبة الرائقة كأنها سواكب الظل في الأسحار ، تلثم نابت الزهر ، أو كأنها مطالع الأضواء تداعب عصفورا في وكره لتنفض عنه خدر النعاس ، وتبعث فيه يقظة النهار الجديد »

وأحسن الكاتب في اختيار الجو الذي يصلح مسرحا لتلك العاطفة الامومية في عهد الطفولة ، جو الدمى والعرائس ، وبرع في نقل احساسات الطفلة ، وهي تضفي على تلك الجوامد خفقة الحياة ، حتى لكأنها تعيش مع العرائس والدمى ، بحسبها من الأحياء ، فالعروس كانت تقع في يد الطفلة « دمية صامتة ، لا حس فيها ولا حراك ، فتسرع اليها تتحدث ، وتقبل عليها تتعرف ، فكأنما تنفخ فيها من روحها ، ليستكمل خلقها ، فاذا الدمية الصموت ناطقة ، واذا العروس الجامدة خلق آخر يشعر ويحس . » .

ولا يقف الكاتب في تصوير موقف الطفلة من العرائس والدمى عند مجرد الوصف ، ولكنه يحاول أن يجعلنا نؤمن بأن الطفلة قد انحلت من عرائسها ودماها دنيا حقة لها كل مظاهر الواقع ، فهي تقص عليها ما تقص ، وهي تغضب منها تارة وترضى عنها تارة أخرى ، وهي تعالجها اذا أصابها الضر ، وهي تتعهدها ليل نهار .

ولا يدخر الكاتب جهدا في تصوير ما يسميه بحق « خلجات الأمومة » فبينما الأم تمثل طفلها عملاقا كبيرا له صولة وهيبة ، تتمثله في الوقت نفسه رضيعا يفتقر الى ثديها ليلتمس عنده رحيق الحياة .

وينتقل بنا الكاتب مع الأم الثكلى ، الى عالم الدمى والعرائس ، عودا على بدء ، اذ تعود الأم سيرتها الأولى ، لا سلوة لها بعد فجيعتها الفادحة الا ان تلوذ بتلك الجوامد تخلع عليها صبغة الحياة التي ضن بها الزمن على وليدها المرموق .

وينتهي بنا الأمر الى الأم تهدهد عروسا من قطن على مهد الطفل الفقيد ، وفجاة تهبط على حافة المهد ، متشبثة باعواده ، يستبد بها نشيج موصول . وانه لختام موفق تتجلى فيه يقظة الواقع ومرارة الحقيقة ، على الرغم من خداع النفس بالخيال الموهوم .

والقصة فيها لوامع من حقائق الحياة ، ومنازع النفس ، في اسلوب يؤثر الجمال والتانق لفظا وعبارة ، وكأنما الكاتب يغني قصيدة أو يعزف لحنا ...

حـــينما بهر الدار ذات عشيه تتوسل من ثرثاته اصداء مستقسمة تفيض على الحجرة مراحا من السكينة والأمن ، وكأنما بين نقوشـــه الحلاه بالشر الخالص ولوحاته العتيقة الأصيلة في محراب الفن تتوسم الروعة والبهاء .

واظهر ما في ذلك البهو لوحة لفنان عبقري تمثل الأمومة في اوضح تصوير ، وقد انحنى اطارهـــا المذهب على طفل يرتضع ندى أمه الحنون ، وهي رابضة اليه بنظرات رهو واعجاب ، يرضـــع حليبها تالق كتلك الشمس المشرقة التي يطلقها الوجود يحيي بها تباشير الصباح

وجلسنا نترشف أقداح القهـــوه ، ونعاود ما كنا نتداوله من احاديث الفن واهله ، فاشرى من بين المدعوين احدهم يصمم ، وهو مصطحع في جلسته وعياء عالمان باللوحة .

لم اجتل اروع من ذلك الرسم ... فيه يتالف سمو الفن وواقع الحياة ... أليست الأم هي ذلك الشبح الفياض ينفجر منه رحيق الحياة ... أو ليس وليدها ذلك الحمول الرقراق يحمل معنى القوة ، ويبشر روح الخلود في مداره ومجراه ! ...

وعقبت سيدة البيت ، وهي ترجي ضحكه ليبة عابثه

مرحى لك يا سيدي الفيلسوف ... ماذا يفيد ذلك الشبح الفياض وهو يحمل ترجيعه على الحمـــول الرقراق ؟ ... أكذوبة العيش ، وخدعة الدنيـــا ... ليس حمل ذلك الرقراق الا تدبير الاضمحلال والضعف والفناء لذلك الشبح المسلوب ... أهذا معنى الخلود يا سيدي ؟

فقال لها محدثها وما زال رابيـــا الى جدار البهو ، ينفث دخان لفافته فتتعقد في سماء الحجرة علائل من سحب لا تلبث أن تضي

لا شك عندي ســـيدتي أن كل امرأة تحيا في باطن نفسها ما تحياه على مطرح اطـــارنا تلك الأم الفجور ... الم تعطني الى مـــا يتوضح على محياها من رفاهة ونعيم ... انهـــا تتوسم في هـــذا الغصن الرطب عمرا جديدا لهـــا تتمثل فيه نضرة الربيع وشباب الحياة ... انظري الى عينيها تتلالأ ... الى وجهها يطلق ، الى بسمة على ثغرهـــا تكشف عن ثقة ورضـــا واطمئنان ... هذه هي رسالة المرأة ... رسالة البعث ، رسالة البقاء

فبحاظت سيدة البيت عـــه بنظراتها تفهم

انـــا نفتقر الى ثالث يحسم ما بيننا من خلاف .

وأقبلت على تقول في صوت متراخي النبرات

يسعدني سيدي الطبيب أن اقف على رأيك في هذا المشكل ...

وكانت مفاجأة أدهشتني شيئا ما وانسابت نظراتي الى اللوحة مليا في مكانهـا العلي ، عسى ان تلهمني الرأي السديد .

وانطلقت أسرح الفكر لحظات فيما سمعت . فرجعت الى ذاكرتي أشتاتا من الأحداث مرت بي فيما غبر من أيام . واذا أنا أتطلع الى الجمع فأقول :

سأقص عليكم قصة تراخى بها العهد . غير أنها ماثلة في تفصيلاتها ودقائقها أراها واحسها كأنما أشهدها في يومي الحاضر ... لتعذروا لي اني اكثر الأسماء ... بذلك يقضي علينا أدب المهنة ...

منذ سنين انعقدت بيني وبين أسرة من كرائم الأسر ألفة ، ووثقت صحبة وكثيرا ما تتعدى الصلة بين الطبيب ومرضاه حد التعارف ، فتصبح صداقة وكيدة وودا مصفى .

بيت القصيد في أسرتي صبية بكرت اليها مشاعر الأمومة وهي طفلة لم تستكمل سنيها الخمس بعد ، فاستسمت للحياة بأنس سمعها الغض بذلك اللحن الطروب في الأمومة الخالد ، وعاشت في حدائقها تترسل عليها تلك الانعام المدنة الرائقة ، كأنها سواكب الظل في الأسحار تلاثم نابت الزهر ، او كأنها مطالع الاضواء تداعب عصفورا في وكره لتنغص عليه حدر النعاس وتبعث فيه يقظة النهار الجديد ...

وتوضحت خلجات الأمومة في مواقف عدة من حياة الصبية ، طورا بعد طور ، وعهدا بعد عهد ...

كان أهلوها يسارقون اليها النظر فيلفونها قد خلت الى عرائسها في ركن من أركان حجرتها الخاصة ، توليهن الرعاية والحدب ، كأنها أم رؤوم تتعهد أطفالها بما يوفر لهم الراحة والنعيم .

ومما كان دور العربي وغيرهم من الحيرة والصحب يتعالون بما اقتنت الطفلة بالدمى والعرائس ، حتى اعاصروا عليها شكولا وألوانا من هذه التماثيل ، فاجتمع للطفلة من عرائس القطن والجلد والمطاط وغيره حشد كبير .

وعلى الرغم من تكرار الهدايا في نوعها الموحد وصورها المتشابهة ، فان الصبية تتلقى الجديد منها بمنتهى من الشغف ، كأنما تهدى اليها أول مرة كانت العروس تهدى الى الطفلة دمية صامتة ساكنة لا حس فيها ولا حراك ، فاذا تعلقتها الطفلة أسرعت اليها تتحدث وأقبلت عليها تتعرف ، فكأنما تنفخ فيها من روحها ، ليستكمل خلقها ، وتبث فيها حقيقة الحياة ، فاذا الدمية الصموت ناطقة ، واذا العروس الجامدة خلق آخر يشعر ويحس ، واذا هي قد احتلت مكانها بين العرائس الصواحب يتناقلن الحديث ، ويسترسلن في ترنرة ومعابثة .

وأفردت الطفلة لمملكة العرائس ركنا من حجرتها ، عمرته بما يلزم من أدوات الحياكة والتزيين والتطييب ، وأطلقت على كل من العرائس اسما تناديها به .

استأثر بالطفلة ركنها الحبيب تقضي فيه الساعات الطوال ، فتستطيب في صحبة عرائسها الحياة ، تستوي على مقعدها تسامر الدمى بما شاءت أن تسامرها به من قصص ونوادر وأفاكيه وهي ستدر خيالها السادح في التأليف والتصييف ، فلا تلبث أن ترسم صورة

منسقة ، للشاطر محمد ، مصورا ان معاركه الحربية يدير المعارك ، يدك الحصـــون ، ويفتح القلاع ، فتنحو له الحياه وتحر له الجبابر ، ولا تزال به في ساحة الوغى يكتب نصرا بعد نصر ، حتى يثوب الى عرشـــه ، عليه اكاليل الغار ، محفوفا بالنهاية والفخار .

وان شعرت الطفلة بأن عمار الركن الحبيب تشعب عليها اطلقت في خضم الشغب والصوضاء قصة «امنا الغولة» فما أن تنحسر القصة بما فيها من تخويف وترهيب ، حتى يعاود الركن — في زعم الطفلة — أمن وسلام ..

وكثيرا ما تعصب الطفلة لصويحباتها العرائس ذات نفسهـــا ، تكرر عليهن ما تلقطته من احاديث أمها وخالتهـــا ومربيتها ، وما تقع عيناها عليه من أحداث يومها الطويل ، وكثيرا ما اقبلت على ركنها تسهر على راحة عرائسهـــا فتمضي الوقت حيـــالهن ، تكوى ثوب هذه ، وترحل شعر تلك ، وتمهـــد سائرهن بألوان من التدبير ....

وذات لي الصبية ذات يوم مندفعة الخطو تقصد مجلس أمها وتسعط لها دمية مهشمة الأوصال تستبين بهـــا جراح ، واذا هي تقول وفي صوتهـــا نبرات خوف وفي عيونها بريق الدمع :

لابد من استدعاء الطبيب ..

فابتسمت أمها لها تطيب خاطرها ، وهي تشير الى ، وفي نظراتها دعابة :

الم ترى الطبيب ..؟ لقد استدعيته لعروسك المسكينة ... اعرضيهـــا عليه .

فتطلعت الى الطفلة اقول في اهتمام مصنوع :

اريني دميتك ... مالها ...؟

فتقدمت مني في نهيب تعرض على الدمية وهي تهمهم :

لقد سقطت عن المنصدة ... فانكسرت ذراعها ..

واسترسلت تصمم كلمات يقطعهـــا النسيج ، ثم تمالكت تقول في صـــوت حنون :

لا تقلقي عليها ... كل بها رحيما ... انها عروس طيبة ...

وتناولت عنهـــا الدمية ، وعالجت وصل ذراعها الكسيرة ، حتى أفلحت ، والطفلة محدقة الي ، ملء عينيها قلق واهتياج .

فلما تبينت عروسها قد ردت اليها العافية ، حدثتها مني تحتضنها ، وقد تألق وجهها ذلك التألق الذي تعودت أن المحه يرتسم على أسارير الأمهـــات حين يستبشرون بسلامة أطفالهن من الأمراض والأخطار ...

وسرعـــان مـــا رأيت الطفلة تهرب بدميتها وثابة الخطى ، فاستوقفتها أمها تقول :

الا تشكرين السيد الطبيب ...؟ انه خير ذراع صنيتك ... انه ردها اليك سليمة ... حري بك أن تصليه قبلة الشكر وعرفان الجميل ...

فرجعت الي ، ومسحت جانب وجهي بقبلة خاطفة ، وهي تهمهم في خجل واستحياء :

شكرا ... الف شكر .

فحملتها بين يدي اقبلها في بشاشة وترحيب ، وانا اوصيهـــا بأن تحوط الدمية الجريح بما يجب من عنـــايه ، مجتهدا في اكساب ملامحي هيئة الجد ،

كما أفعل حين أوصي أهـــل المريض بالمريض سواء بسواء ...

فاستدارت عجلى بصدف عن البهو وهي تخاطب دميتها في لهجة تنحل فيها الامرة والسيطرة المشـــفوعة بالتحوف والاشفاق :

أرأيت ما نالك من التعب ؟ ... لعلك ترتدعين ... اياك والعبث مرة أخرى ...

ســـــلمت ، وبعد الشر عنك ... ستعاقبين معي ...

والتفتت الأم تقول في صوت كأنه المناجاة :

اني من طفلتي في حيرة ... أخشى ما أخشاه اسرافها ، وهذه العاطفة ... انها أم يا عزيزي في جميع خلجاتهـــا واحاسيسها ... تصور انها تخصص في كل ليلة عروسا من عرائسهـا ،

فتوزع عليهن ليالليها ، لكل منهن نوبة كأنما توزع عليهن برها وحنانهـــا بالسوية ... أم بين أولادها !!

لا تخشى مضـــة تلك العاطفة ... التي كفيلة بالتخفيف من حدتها .

فقالت :

أهي تحف على علو السن أم تحتد ؟

فأجبتها :

اعني أنها تنضج مع الأيام ... فلا يكون لهـــا ذلك المظهر الطفولي الذي تزين .

فعقبت تقول :

الا تخشى تضج هذه العاطفة فـــل الأوان ، فيكون لذلك أثر في مـــستقبل الصغيرة غير مأمون ؟

والحق أني كتمت عن الأم قلقي مما استشفه وراء الأفق البعيد في غيب السنين ...

اقلب أسائل نفسي :

ماذا يكون موقف تلك الأم المبكرة في ملتطم الحياة ومجاهل الأيام ؟ ..

وواصل الزمن سيره الدائب يزيد الفتاة من بهاء وسناء ، لقد صاغتهـــا يد التطور حلية مكتملة الوصوح ... فتاة مجتمع راقية تشع منهـــا الأنوثة بصة الاهاب ...

كانت تلك الزهرة فيمـــا يتحلى من نضرتها تفصح عن عاطفة حياتية ، كأنها قبسة قدسية تتوقد لا تخبو لها أوار .

لقد آن لهذا النبع الفياض ان تتفجر منه الحيـــاة ، وان يتراءى منه جدول زهراء كله صفاء ونقاء ...

وربما حادثنا الفتاة اطراف الحديث في شأن الزواج ، فسمعت للمناقشة في بساطة وفطنة وحسن تقدير ، ان سئلت ماذا تنشد في حياتها الزوجية ؟ اجابتك في بشوء واحلام ... طفلا ارعاه طفلا أحس بنشأته ... طفلا افرغ له بكل ما أملك من اسعاد وتنعيم !

تزوجت الفتاة ...

وأقبل عليها زوجها يسافيهـــا كأس الهناءة ويطارحها متعة الحب ... فانبعثت تنشيد صرح الأماني وتنعق عش الأحلام

وتوالت بها الأعوام دون ان ترف في احشائها خلجة حياة للجنين المنشود ، فحن حنوها وتناوحت في رأسهـــا الفكر ، وحدقت عيونها عشاوة تبحث عن أطارها ما تمثلته من حياتها الزوجية زوصة عيناء مورقة ملء أدواحها لحن الطيور المغردة ... أتلبث عقيما لا تنحب كتلك الشجرة الصحفاء لا ظل لها ولا ثمر ... ؟

أتستحيل دنياها صحراء مواتا تعبث فيها الوحشة والخراب ، وتتعاورهـــا سموم الرياح ، وتصبح هي في خضم تلك الصحراء حصاة يشقيهـــا اليبس والجفاف ... ؟

لا صبر لها على عيش يطبق عليـــه الصمت والظلام !

ولم تدخر جهدا ولا وسعا في التنقل بين أيدي الأطباء ، غير مقتصدة في مال يبذل ، ولا مقصرة في استجابة لنصيحة ترعى ...

لقد ضاقت هي بصماء الأرض ، وتعلم الأرض ، وتطب الأرض ... فلا مندوحة لها الا ان تبسط كفها تستمدي السماء !

ويوما ترقرقت للزوجة ظنـــون آملة مستبشرة ، ولم تلبث هذه الظنون أن تحقق صدقهـــا ، وبان على بقين ان الزوجة تنطوي على حمل ...

وكان حملها شغلها الشـــاغل في يومها الأطول وحلمها الحافل في ليلها

البهيج ، تحرص اشد الحرص على حبيبها حين تخطو وحين تميل ، حشـــية عليه وحياطة له ، وايثارا لعافيته المستفاة ...

واذا خلت الى نفسها تستعرض صفحة حملها تطلعت فيما بين حبيبها وقد علا تنهده ، فتتسع النظر كانما هي تود ان تستجلي حبيبها المحجوب ...

لا يقع في بالها ان يكون ذكرا او انثى ...

فليكن ما يكون ... حسبها من متاع الدنيا وفتنة الوجود ان يمرح بين يديها وليد ...

وبدأت تحس بالحيـــاة تدب في احشائها الدامية ، فكلما تقلب الجنين لم تتمالك ان تتحدر في عينيها دموع اليمن والتفاؤل والسرور ...

واختلفت الفتاة الى متاجر الثيـــاب والزينة ، تتخير لطفلها المنتظر الوانا من الاكسية والطرف في تأنق وسخاء ، ان طفلها جدير بان يحوطه الجمال في كل شيء ... في اسمه ، في ثوبه ، في دثاره ...

لتوفر له الهنـــاءة والرفاهيـــة والاسعاد ...

وتبعد الروحة اتـــواطا على أجنحة الخيال ، فتتمثل نفسها وقد حملت في حضنها لفيفة معطرة تختلج ، وهي تسبح عليها دفء الحنان من صدر يموج فيه الحب الفياض ...

وتنعطف عليه تتوسم حبيبه المتألق وقد ربحها زهو ونشوة واستمتاع ...

وتسترسل في خيالها تصـــغي الى صراخ الطفل الحبيب ... صراخ النشطة والحركة والتفتح للحياة ...

لسوف تأنس بآيات الوليد ... وما يبعثه من بكاء وصياح ...

لسوف يقع ذلك من سمعها موقع الروعة ، فما بكاء الطفل الا لحن الوجود وأنشودة الخلود ...

فليتصـــايح طفلها ما طاب له الصياح

وتتمثل الروحة في خيالها ، فيتراءى طفلها لا يكاد تلده حتى يصبح عملاقا في مهده قادرا ان يدير ملكا ، ويسوس دولة ...

لقد امـــسى مهيب الجانب يزين رحولته فسامة ووسامة ...

نساء الأرض تدب في صراعة وتدلل ، لكي تســـتحدى منـــه نظرة الرضى والايثـــار ، ولكن العملاق لا يلبث ان يعود طفلا يبعث بصرخاته مهيج الشغبين يطلب الغذاء ، فتلتمه الأم ثديها وتحنو عليه بذراعهـــا ، فيرتضع في طمأنينة وسكينة واستمراء ...

بذلك تنتهي رحلة الروحة في عالم الأطياف ترطب بها قلبها الولهان ثم تنجاب عنها الأوهام ، وهي ما برحت في مجلسها مذللة بانظارها فيما بين حبيبها تتوسم وتستشف ...

انها قلقة تترقب ... أذنها عطشى الى السماع ... عينها عطشى الى الطلع ... ذراعها عطشى الى الالتفاف ... ثديها عطشـــان الى الارتشـــاف ... جوارحها جميعا تهفو الى اللفيفة الخافقة الصاخبة تشعرها بهجة الحياة وغبطة الوجود ...

طفلها الحبيب ... لن تكون له مرضع سواها ... لن يحلو له غيرها ... ستفرد له وقتها اجمع وحنانها أجمع ... لتهيء له حياتها جمعاء ...

واقبل اليوم الموعود ...

فلما جاء المخاض دهشت أن أشرف عليها في مستشفى التوليد ، وشـــد ما اوجستني نفسها لا أسوءه ولا اسمه بادى

وتوالت الساعات صعبا تعاني فيها الروحة تباريح الألم ، والجنين عنيد لا يتحلحل ، والطب يبذل وسائله السلمية دون جدوى ...

وحانت اللحظة الحاسمة ، فلم يكن بد من اجلاء الجنين على أى نحو يكون استخلاصا للأم من براثن الخطر

وانحصرت مهمتى من بعد ، فى أن أنهى الى الأم نبأ فقدانها الطفل المنتظر ...

كنت بجانبها عندما أفاقت فتحسس بيمينها اللطيفة مرفقة أذنها الى تلك الأنات التى ظلما ترنمت بها فى عالم الرؤى والأوهام ، فلما لم تجد ما يناجى روحها العطشى رمقتنى بنظرة ارتياب ، تسألنى

أين الطفل ؟ ...

وحيل الى أنى قادر على مكاشفتها بالسر الأليم ، فاضطرب لسانى لا يفصح ولا يبين ، وجعلت أخلط فى الجواب ، فتطلعت الى والحيرة بادية عليها تستنكه ما بطن من أمرى ، وأدانى على حالى من السهوم والجمود ، فصرخت لى

أين طفلى ... ؟ امسه مكروه ؟

وما تمالكت أن اطرق ، والدنيا تضيق حيالى ، والعيتنى أشير الى المرضعة اشارة تفهمها ، فأسرعت الى المهد تحفل به الأم الثكلى .

ولما بلغت من حديثى ذلك المبلغ ، ضربت ركبتى بيدى فى سكتة قصيرة ؛ فسمعت سيدة البيت تهمهم فى صوت خفيض

مسكينة ... لا بد أنها جنت ... من كان فى مثل حالها لا يثبت له عقل فشخصت اليها أعاود قصتى ، وقد أخرجت لعاقة نبع من عظمتى أنعت دجاجها حرائا ، وأتناول قدح القهوة أرشف منه !

أمضت الثكلى أيامها لا تريم عشها بتبارعها وحشة وانقباض ووجوم ، وفى صدرها يشب ضرام الحزن والتلهف على ذلك العصفور الذى ارتحل ، وأن يعود لكى يمرق الصمت بتغريده الأنيس ...

وأرادنى الصيف على أن أرتحل ...

واستأنفت عملى بعد الغيبة ، فإذا خاصة الزوجة تزورنى لتشكو الى بعض ما تجد ، فبادرتها عن ربة البيت كيف حالها ... فاسترسلت تقول

لا شغل لها فى الصباح الا أن تجد مقعدا حيال النافذة تسرح منه النظر كأنها على موعد من وافر كريم ، ترنقت شبحه فى الأفق البعيد ، وعن كثب منها سلة حافلة بقطع من النسيج وكرات من الخيوط لا تعنا أناملها تصنع منها الأكسية الصغيرة واللفائف الدقيقة ...

وفى هدأة الليل تحقق قدماها فى حجرة النوم متحيرة ، وتتوخى ضوء الثياب منشورة الوحدان ، فتستخرج منه عروسا من قطن توسدها حضنها وتهدهدها ساعة ، ولا تلبث أن تكسوها بما نسجته لها من أثواب ، حتى اذا استكملت لها زينتها حملتها الى مهد الطفل ، فأرقدتها فيه ، واتخذت مجلسها بجانبه تهره فى رفق ، وتترنم باغية هادئة الأنغام ... ويتخافت الصوت رويدا رويدا ، حتى يخيم على الحجرة صمت مرهوب ، فإذا بها على حين فجأة تهبط على حافة المهد منتشية بأهزاده ، وقد انتابتها رعدة ، واستعد بها نشيج موصول .